بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

يجد القارئ الكريم على الصفحات التالية طرفاً من قصة حياة ، امتدت أيامها عبر ثلاثة أرباع القرن العشرين ، بما توالى خلالها من وقائع وأحداث . . .

فنحن ننتمى إلى هذا القرن العشرين ، فى مطلعه فتحنا أعيننا ، وعلى مر أيامه عشنا لبابة العمر ، حتى بلغنا خريفه وقد صارت إرهاصات القرن الحادى والعشرين تدق علينا الأبواب .

وارتبط صبانا بمفاهيم الحركة الوطنية ، وبآمال الوحدة العربية التى عشنا سنينها الثلاث العذبة فى كهولتنا فلم يتحقق الا النذر اليسير مما كنّا نحلم به ، ثم أحزنت شيخوختنا تلك الفواجع التى نزلت بأمة الإسلام من أفغانستان شرقا إلى الجزائر غربا ، ومن البوسنة شمالاً إلى الصومال جنوباً .

ومثلما رأينا الاستعمار وهو يبلغ ذروة بطشه ببلادنا مع مطلع القرن العشرين ، شاهدنا انحساره أمام حركات التحرّر الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى منتصفه ، وها نحن نرقب فى ختام القرن انطفاء شعلة الحرب الباردة بين الكتلة الرأسمالية والمعسكر الاشتراكى اللذين كانت دعوة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز تقف بينهما ، وهى تتابع تداعيات الصراع الإيديولوجى الساخن بينهما ، وتأسف لتأثيراته الضارة في مصائر البشر .

ونحن نوقن وقد أصبحنا على حافة نهاية القرن العشرين أن السمة الحقيقية لهذا القرن الذى عشناه طولاً وعرضاً وعمقاً تتجلى بأوضح صورها فيما تحقق فيه من تقدم هائل فى العلوم وقفزات رائعة فى التقنية ، وانهيار عجيب فى الاخلاق ، وابتعاد ذميم عن القيم الروحية والشرائع السماوية .

وكانت معدلات هـذا التقدّم وذاك التأخّر فائقـة السرعة ، مما خلق ثورة فـى الانتقالات والاتصالات جعـلت الكرة الأرضية تنـكمش لتصبح مـجرّد قرية صغيرة لا يـفوت أحد من أهلها ما يحدث فى بيت جاره مهما بعد مكانه .

واخترقت المعلومة كل الحواجز حتى صـارت على طرف زرار يأتيك بالأخبار من أركان الدنيا الأربعة فور وقوعها ، وغزا الإنسان الفـضاء ، ونزل على سطح القمر ، والتقط صوراً للوجه الآخر للمشترى الذى يبعد عـن الأرض ملايين الأميال ، ودارت الأقمار الصناعية فى كبد الفضاء الكونـى ترقب وتسجّل وتنشر على سكان الأرض ما يسـرى فيها وما يعرج إلى السماء ، حتى فاقت الطفرة التقنية خلال القرن العشرين كل ما حققته البشرية طوال القرون السابقة أضعافًا مضاعفة .

وعندما تهاوى صرح الشـيوعية الإلحادية وقذف بترهاتها فى سلّة مـهملات التاريخ كان العمر يـقترب بنا حثيثـاً من عتبة الألف الثالـثة للميلاد التى نجـزم بأنها سوف تلج بأبـنائنا وأحفادنا باب حـلبة أحداث مختلفـة عما مر بنا فى عالـم القرن العشرين . فلـن تجد تلك الأجيال الصاعدة مكانًا لها فى القرن الحادى والعشرين ما لـم تدرك أهمية العلم والتطور ، وأن كل مالا يتطور يموت ويندثر .

ولم يعد يـكفى ملاحقة مـا ينجزه الآخرون من تقـدم وتطوّر على نحـو ما فعل جيلنا فتخلّف عن ركب الحضارة حتى صار عالة عليها ، بعد أن كناّ بناتها فى أول الزمان .

وإن كانت لجيلنا حسنة تضاف إلى صحيفته يوم الحساب ، فهى التمسك بأهداب الدين الحنيف وآدابـه ، إذ فتحنا أعيـننا على مصر وكـل نسائها محجـبات ، فصار أغلبـهن اليوم سافرات ، وكان صغيرنا يقف لكـبيرنا ، ويلقى عالمنا التوقير والاحترام ، فأصبح كل ذلك اليوم من أقاصيص السامر وفض المجالس .

وحج جدى إلى البـيت العتيق رفق قافلـة المحمل التى بدأت سيرهـا بالجمال من ذات الحاج شرق الـقاهرة فى مطلـع القرن وكل تعداد مـصر وقتها عشـرة ملايين ومرّ فى ذاهبه وإيابه بـقلعة العـجرود عند مدخـل مدينة السويـس ، ثم قلعة الجـندى فقلعـة نخل فالتمد فالكونتلا فالعقبـة فالمويلح فالوجه فينبع حتى دخل المدينة المنـوّرة . وشاهد فى كل قلعة بئر ومدفع عليه رسم سلطان مصر وشعار أنه صبّ فى مصر المحروسة ، فاستغرق ذهابه وإيابه خمسة شهور تكلّف فيها أربعة عشر جنيها ؛ ثم حج أبى فى ثلثه الأول بالسفينة التى أقلعت

به من السويس فاستغرقت حجته خمسة أسابيع ، تكلّف فيها مائة وأربعين جنيها ، وحججنا نحن فى ثلثه الأخير وقد صار تعداد مصر ستين مليوناً فاقلعت بنا الطائرة النفاثة من مطار القاهرة الدولى واستغرقت حجتنا خمسة أيام تكلفنا فيها الفاً وأربعمائه جنيه .

وعبر رحلة العمر التى عشنا حلوها ومرها ، توالت على أمتنا الحبيبة الأفراح والأتراح ، وتطورّت التقاليد والعادات ، فعندما دخلنا الكلية الحربية يوم أن اشتعلت الحرب العالمية الثانية وجدنا البيادة هى العنصر السائد فى الجيش (أى المشاة المترجلة) ، كما كانت الطوبجية (المدفعية) لازالت تستخدم البغال ، وقوات الحدود تركب الجمال (الهجانة) ، ولغة التخاطب واصدار الأوامر يغلب عليها اللفظ التركى ، فلما تقاعدنا كانت المشاة الميكانيكية والدبابات هى ملكة المعركة الخفيفة الحركة والحرب الخاطفة التى توالت جولاتها فى تتابع سريع بمسرح سيناء حيث دارت أعنف المعارك التصادمية بين المدرعات ، وتراشقت المدفعيات والصواريخ بأكثف النيران ، وانقضّت قوات الصاعقة على مؤخرات العدو بالحوّامات (الهليكوبتر) .

وعلى خلاف ما كان يسبّبه فيضان مياه نهر النيل - أحد أنهار الجنّة ، من مشاكل مزمنة استدعت مساعدة الجيش ، سوف تصبح مشكلة ندرة المياة والجفاف أهم تحديات الأجيال الصاعدة فى القرن المقبل . وكما عاش جيلنا عصر الفحم والنفط ، فسوف يعيش من بعدنا عصر الذرّة وتوليد الطاقة من الشمس والرياح والأمواج .

ولقد ولدنا وأمهاتنا يقرن فى بيوتهن ، ونرى النساء اليوم وقد خرجن للكدح فى كل ميادين العمل ، حتى أصبح منهن الضابط والجندى .

وصك سمعنا فى عام ١٩٣٤ صوت أول إذاعة من راديو القاهرة ، وشاهدنا أول إرسال للتلفاز على ١٩٦١ ، ثم انغمسنا للأذقان فى ثورة الميديا (الإذاعة والصحافة والتلفاز) وما يبثّه الدش من برامج ذات تأثير بالغ على أخلاق الشعوب وآدابها وأعرافها فيما يطلق عليه اسم « الغزو الفكرى » .

واندمجت رؤوس الأموال فى المشروعات متعددة الجنسية والمؤسسات والشركات القابضة العملاقة ، كما انتشرت الأسواق المشتركة فى الأقاليم والقارات ، وانطلقت اهتمامات العالم من الحيزّ الوطنى المحدود إلى الساحة الكونية الفسيحة بما يرجّح أن يرى القرن المقبل الحكومة العالمية بأى من صورها المطلقة أو المبتسرة .

وتذكرنا أيام الطفولة والصبا بشدَّة الروابط العائلية وحقوق الجار التى انفكت عقدتها اليوم ، وبرباط الدين الذى كان يحكم جميع التصّرفات والمعاملات والعلاقات ، وبمشاعر الوطنية الجارفة وحب مصر التى كنا نتغنّى بأمجادها صبحاً ومساءً ، ونفخر بدورها فى ركب الحضارة منذ فجر التاريخ ، وأنها صانعة التاريخ .

وكم كانت حياتنا العسكرية حافلة بقدر ما تحمله الكلمة من معانٍ ، فقد بدأت بالحرب العالمية الثانية ، ثم بفظائع الاحتلال البريطانى بمنطقة القناة ، فحريق القاهرة ، فالإضرابات والمظاهرات ، فحرب فلسطين ، فالثورة ، فالعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، فالوحدة مع سوريا ، فالانفصال ، فثورة اليمن ، فقارعة صيف ١٩٦٧ ، فنصر رمضان المجيد الذى كان مسك الختام ،

ومما أعجب له أننى وقد زاملت اللواء أركان الحرب عبد المنعم محمد خليل قرابة نصف القرن فى السلاح . . فإن طريقنا لم يلتق إلاّ فى نهايته ، عندما جمعتنا لجنة تسجيل التاريخ العسكرى لحرب رمضان المجيد ؛ فتوثّقت بيننا أواصر الصداقة والمحبة الخالصة لوجه الله . وكم كان أملنا أن تحدث مبكرًا عن ذلك حتى تعيننا على تجاوز ما صادفناه من مشاقٍ وأتراح ، وتضاعف ما حظينا به من نجاح وأفراح فى قلب المعركة التى خضناها معًا على امتداد نصف قرن امتلأ بأخطر ما مرَّ بمصرنا العزيزة من أحداثٍ جسام على نحو ما يجده القارئ الكريم فى هذا الكتاب الشيقّ ، الذى أتحفنا به هذا الضابط العظيم والقائد الهمام ، اللواء أركان الحرب عبد المنعم محمد خليل ، وضمنَّه جانبًا من حياته الحافلة ، وخبرته الواسعة ، وإيمانه الصادق ،

اللواء أركان الحرب

حسن أحمد البدرى